تلك السمراء..

حسام قنديل ـ مصر

لأول مرة أتوقف عن طرح سؤال "ماذا جاء بي إلى هنا..؟" منذ جئت أمستردام. المدينة التي يصفها كل من رآها برائعة الجمال و أصفها دوماً بأنها تداخلٌ لونيٌ بارع التجانس داخل بيت دعارةٍ كبير يحيطه الكثير من الحدائق..

نتوقف عن التساؤل متى عرفنا الإجابة.. و إجابة ما جاء بي إلى هنا جاءتني عندما كنت أتسكع بعد العمل قرب مصنع البيرة الشهير Heineken. قادتني قدماي لحافة النهر ملاحظاً شُرطيّين يجبران مخمورين على إفراغ زجاجات البيرة لأنه يُمنع الشرب على حافة النهر في الصباح.. عرفتُ عندما رأيت تلك السمراء تجلس بعد ثلاثتهم تتأمل النهر.. لا أعرفها، و لا أدري نوع الهالة التي جذبتني لأعلق عيني بها كل هذا الوقت.

إجابة تساؤلي تسللت إلى نفسي عندما وجدتني – لا إراديا – اقترب منها، و أجلس في موضع الرائي لتفاصيلها ملاحظاً أن السكارى قد مضوا، و ملاحظاً أيضا ذلك المتشرد الذي يجلس خلفنا غير آبه بأي شيء.. مثلي تماما منذ خمس دقائق قبل أن تظهر هي و قد أسندت يديها الصغيرتين نسبياً إلى الحشائش خلف ظهرها و أغمضت عينيها ودفعت بصدرها إلى الأمام مستنشقة الهواء، و فردت قدميها الصغيرتين بلا حذاء على العشب الممتد أمامها..

لم تلاحظ أنني أتأملها بالتأكيد، و بالتالي لم تشعر بعجبي لسحر سُمرتها المتألقة وسط ساعة نهار صحو.. سمرة تشبه بالضبط شكولاتة زادت فيها جرعة الحليب قليلاً فمنحتها لوناً متفرداً و إلّم تفقدها روعتها و كونها شكولاتة..

روعتها التي تصاعدت بلا سقف عندما فتحت عينيها اللتان أضافتا بسوادهما العميق مع سمرتها و لمسة كحل خفيفة ستارا على جمال الطبيعة ذاتها..

كل الوجوه جميلة، هذا ما اكتشفته.. الوجه هو مجرد آلة طباعة لتفاصيل الروح، و العين تبصر – و إلم تعرف كيف – صك الروح على تفاصيل الوجه في النظرة الأولى.. و روحها حملت تفاصيلًا تضيء كل ما حولنا. تفاصيل أعادتني لمشاعر فقدتها منذ عقد من الزمن..

ابتسمتُ لها مرتبكاً فبادلتني الابتسام، تبادلنا بضع كلماتٍ لكنني لم أكن أحدثها بعربيتي التي تفهمها بحكم أصولها السودانية، و إنما بعينيّ التان قبلتا دعوتها الصامتة لأن أجول في تفاصيلها التي لا توصف بل تقفز بالمرء إلى مستوً لا مجال فيه لتعقل، كما أنه لا مجال لروية في مواجهة إعصار فتنتها..

حكت لي عن أسفارها التي لم تدع قارةً إلا وجمعت منها ما أضاف لها سحرا لا يصدق، حكت لي عن باكستان فأحببتها، و عن رومانيا فرأيت جماله ريفها مرسوماً على وجنتيها عندما تقطبان فتظهر فيهما تجعيدات تشبه نهر السين في باريس كما وصفته لي، رأيت فيها روح النوبة، و رأيت فيها حرية أحراش رواندا و جبال تنزانيا

و جانباً حنوناً لم أتخيل وجوده في أمريكا..

سألتني و قد اقتربت مني قليلا لم لا أتحدث..؟ لم أستطع إلا أن أخبرها بلا مقاومة تُذكر أنني أحبها، و أنني أريد منها هذا الحب و لو ليوم واحد.. أريد أن تسمح لي بأن أسمعها ليوم واحد.. بسبر أعماقها كما أدخلتني إلى تفاصيل حياتها بسهولة لم أصدقها، و كما أسرتني بسمرة لن أنساها.. حتى لو كان ذلك اللقاء على نهر أمستيل في أمستردام حيث أعمل و تعمل مؤقتا هو آخر لقاء..

هل يمكن أن أحبك و لو ليوم واحد..؟

من يعرفني كملحد بالحب، لا يمكن أن يتخيل أن أفعل ما فعلت بعد أن قبِلت فاتنتي – التي لم أهتم حتى أن أسألها عن اسمها – أن أحبها. استعرت كاميرتها و سجلت كل ما حدث يومها بعد أن اتفقنا أن أحتفظ بصورة واحدة فقط، لا لشيء إلا لأتأكد أنها حقيقة و ليست حلماً..

تحدثنا، أكلنا، ضحكنا، سكرنا، جربنا الحشيش الهولندي المتاح في كل مكان، زرنا حي الأضواء الحمراء لنشاهد كيف يعرضون أجساد البشر غير عابئين بما عرفناه في أرواحنا يومها فكنا كمن ذهب إلى هناك فقط ليثير حسدهم.. صوّرتُها و هي تضحك، و هي تقطب جبينها مازحة، و هي تخرج لساناً ساخرًا من تفاهة موضوع، فيتداخل لون لسانها مع لون بشرتها مثيرا خيالات مريعة فوق تصور كل لذة، خيالات تتصاعد لدرجة روعة تصل لعدم الرغبة في نقلها لعالم المادة لأنها

أروع كخيالات.. صوّرتُها بين الأشجار، و على ضفة النهر، في القارب حيث تجولنا في المدينة الساهرة أبدا، و في سيارتها.. صوّرتُها و هي تنظر إليّ، و صورتها كذلك وهي بين ذراعيّ، صورتها منتشية، سعيدة، مسترخية، حالمة.. و احتفظت هي بكل تلك الصور عدا صورةً واحدة..

طوال حياتي لم أتمن أن يقف الزمن و تتسمر اللحظة و سخرت من تلك الأمنية معتبرًا إيها ضربًا من الخبال.. لم أفهم أصلا ما معنى تلك الأمنية البلهاء.. إلا اليوم و أنا أودع "ساهرة" بحضن طويل على وعد بلقاء كلانا يعلم أن لن يحدث..